المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك علي عبدك ونبيك محمد وعلي إله وصحبه ومن صار علي نهجه إلي يوم الدين أما بعد .

إن قضية أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وأفعاله الجليلة، تُعد من أجلّ مسائل الاعتقاد وأسماها، إذ بها يُعرف الربُّ سبحانه وتعالى، وتُقامُ على أساسها أركانُ الإيمان.

وقد حظيت هذه المسألة بعناية فائقة من لدن الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، فهم خير القرون وأعلمُها بالله تعالى وشرعه.

سبب عمل هذا البحث

من بين الصفات الإلهية التي دار حولها نقاشٌ واختلافٌ، مسألة "المعرفة"؛ إذ يرى بعض الناس بل بعض الدعاة تحفظًا في إطلاق هذا الوصف على الله جل جلاله، أو القول بأنه "يعرف"، خشية الوقوع في محظور التشبيه أو القياس على صفات المخلوقين التي قد تستلزم نقصًا أو حاجة.

ولقد قراتُ وسمعتُ بعض المشايخ والدعاة ينكروا وصف المعرفة لله .

وانطلاقًا من أهمية هذا الموضوع، وما قد يكتنفه من لبسٍ لدى البعض، يأتي هذا البحث ليسعى إلى تحقيق القول في هذه المسألة تحقيقًا علميًا مؤصلًا، وتفسير النصوص الشرعية الواردة فيها، وتدقيق العبارات المستعملة، وذلك بهدف

الوصول إلى فهمٍ واضحٍ وجليٍّ لحقيقة هذه الكلمات ومقتضاها في حق الله عز وجل.

وتتضمن هذه الرسالة الفصول الآتية:

* إثبات الأسماء والصفات والأفعال لله تعالى: ويتناول هذا الفصل بيان منهج أهل السنة والجماعة في إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات والأفعال، مع ذكر القواعد الأساسية في هذا الباب.

* هل ثبتت لله المعرفة؟: يستعرض هذا الفصل الأدلة من الكتاب والسنة التي تدل على ثبوت وصف "المعرفة" لله تعالى، سواء بصريح اللفظ أو بدلالة الأفعال المنسوبة إليه سبحانه.

* الرد على من ينكر المعرفة لله: يناقش هذا الفصل حجج القائلين بعدم جواز وصف الله بالمعرفة، وتقديم الردود العلمية المستندة إلى الأدلة الشرعية وقواعد أهل السنة والجماعة.

* منهج الصحابة والتابعين في إثبات الصفات لله: يوضح هذا الفصل كيف كان الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان يتعاملون مع نصوص الأسماء والصفات، وكيف كانوا يثبتونها لله تعالى دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

* خاتمة البحث: تتضمن خلاصة النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ونافعًا لعباده المسلمين.

الفصل الأول: إثبات الأسماء والصفات والأفعال للّه تعالى

يمثل هذا الفصل الركيزة الأساسية التي ينطلق منها البحث، حيث يستعرض المنهج القويم الذي سلكه أهل السنة والجماعة في التعامل مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الجليلة. هذا المنهج يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، وفهمها على ظاهرها اللائق بجلال الله وعظمته، مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة المخلوقات.

أولًا: إثبات ما أثبته الله عز وجل لنفسه في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

هذه هي القاعدة الأولى والأساس الذي يبنى عليه كل ما يتعلق بأسماء الله وصفاته. فالمصدر الأول للمعرفة بالله تعالى هو وحيه المنزل، سواء كان قرآنًا أو سنة نبوية صحيحة.

قال الله تعالى ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ففي هذه الآية الكريمة، أثبت الله لنفسه صفتي السمع والبصر، ونفى عنه المماثلة للخلق. وهكذا، فإننا نثبت كل ما ورد في النصوص من أسماء وصفات وأفعال لله تعالى، مثل: الرحمن، الرحيم، العليم، القدير، الخالق، الرازق، وغيرها. [١]

[١] - انظر الفصل في الملل والاهواء والنحل ١٠٨/٢ نشر مكتبة الخانجى القاهرة , فتح البارى شرح صحيح البخاري ٢٢٣/١١ ، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني لاحمد بن غانم (أو غنيم) بن سالم ابن مهنا صـ ٥٣ الناشر دار الفكر بيروت ، انظر الى القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لابن عثيمين صـ٢٩ وما بعده الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ، أصول العقيدة للرضواني ٢ / ٩٨٠ وما بعده الناشر: مكتبة سلسبيل، القاهرة

ثانيًا: الاشتقاق من أسماء الله عز وجل الصفات والأفعال.

يجوز لأهل السنة أن يشتقوا من أسماء الله تعالى صفات وأفعالًا تليق بجلاله. فمن اسمه "العليم" نشتق له صفة "العلم"، ومن اسمه "القدير" نشتق له صفة "القدرة"، ومن فعله "استوى" نشتق له صفة "الاستواء" على العرش، وهكذا.

وهذا الاشتقاق يكون للمعنى الثابت للاسم، مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين في كيفية هذه الصفات والأفعال.

قال بن القيم : " أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلا ومصدرا ونحو السميع البصير القدير يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: {قد سمع الله} {فقدرنا فنعم القادرون} هذا إن كان الفعل متعديا فإن كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحي بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله والمخلوق كماله عن فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل فالرب لم يزل كاملا فحصلت أفعاله عن كماله لأنه كامل بذاته وصفاته فأفعاله صادرة عن كماله كمل ففعل والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به "[1]

قال الرضواني : " إذا ثبت الاسم توقيفا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله فإنه يدل على ما تضمنه من الوصف ، سواء كان وصفا ذاتيا ، أو وصفا فعليا ، فنأخذ من الاسم التوقيفي الذي دل على وصف متعد ثبوت ذلك الاسم لله عزوجل وثبوت

---

[1] - بدائع الفوائد – ابن القيم - الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١/ ١٦٣)

الصفة التي تضمنها ، وثبوت الفعل لله عزوجل ، وثبوت أثر الفعل في المخلوقات "[1]

ثالثًا: عدم اشتقاق من أفعال الله وصفاته أسماء.

لا يجوز أن نشتق لله تعالى أسماءً من مجرد أفعاله أو صفاته لم يرد بها النص.

قال الله تعالى ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]

فمثلًا، لا نسمي الله "المتكلم" اسمًا لمجرد أنه يتكلم، بل نصفه بصفة الكلام اشتقاقا من وصف الفعل وهو التكليم لأنه ورد بذلك النص.

قال الدكتور الرضواني في قول الله تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] " ولذلك فإن التوقيف بالنص على الفعل توقيف على وصف الفعل ، والتوقيف على وصف الفعل توقيف على إمكانية الفعل . فالفعل (تجلى) دل على أن التجلي وصف فعل لله عزوجل وهو وصف أزلي أبدي متعلق بمشيئته "[2]

فالأسماء توقيفية، أي تعتمد على ورود النص بها.[3]

---

[1] - أصول العقيدة للرضواني ٨٩٨/١

[2] - السابق ، انظر الى كتاب أصول العقيدة للدكتور الرضوانى فقد ذكر ٣٦٦ فعلا لله عزوجل في القران ٩٣٠/٢ : ٩٥١

[3] - تفسير مفاتيح الغيب فخر الدين الرازى ١٢/٥ نشر دار الكتب العلمية بيروت , أصول العقيدة للرضواني ٩٣٠/٢

رابعًا: إثبات الصفات لله اثباتا مفصلا من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.[١]

قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ *هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ *هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١٧-٢٤]

قال الله تعالى ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: ١-٢]

هذه القاعدة جامعة مانعة، فهي تحدد كيفية إثبات الصفات لله تعالى.

* التحريف: هو تغيير معنى النصوص عن ظاهرها المراد.
* التعطيل: هو إنكار الصفات الثابتة لله تعالى أو إنكار آثارها.
* التكييف: هو محاولة بيان كيفية الصفة الإلهية، وهذا مما لا يعلمه إلا الله.
* التمثيل: هو تشبيه صفات الله بصفات المخلوقين.

فمنهج أهل السنة هو إثبات الصفات بمعانيها اللائقة بالله، مع الإيمان بأن كيفيتها لا يعلمها إلا هو سبحانه، وتنزيهه عن كل نقص وعيب وعن مشابهة خلقه.[٢]

[١] - قال بن تيمية " ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل؛ ولا تكييف ولا تمثيل. فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه؛ ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. " مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٥) الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة - السعودية

[٢] - مجموع الفتاوى ١٩٥/٥ , شرح العقيد الاصفهانية ٢٥/١ , العقيدة الوسطية ١٣٠/٣ , الفرقان بين أولياء الرحمن واولياء الشيطان ضمن مجموع الفتاوي ٢٥٠/١١

خامسًا: أن القول في الصفات كالقول في بعض، إن ثبت نثبت وإن نُفي ننفي.

هذه القاعدة تدل على الاتساق والشمولية في التعامل مع الصفات.

فإذا ثبتت صفة لله تعالى بنص صحيح صريح، وجب إثباتها، وإذا نُفيت عنه صفة بنص صحيح صريح، وجب نفيها. ولا يجوز التفريق بين الصفات الثابتة بإثبات بعضها وإنكار البعض الآخر بلا دليل.[1]

قال الله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر: ٢٢]

قال الله تعالى ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤]

الحديث : عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له "[2]

---

[1] - قال مرعي الكرمي " فمثل ذلك بعينه فوقيته واستواؤه ونزوله ونحو ذلك فكل ذلك ثابت معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال يليق بالمخلوق بل كما يليق بعظمته وجلاله فإن صفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت غير معقولة من حيث التكييف والتحديد ولا فرق بين الإستواء والنزول والسمع والبصر الكل ورد في النص فإن قالوا في الإستواء والنزول شبهتم فنقول لهم في السمع والبصر شبهتم ووصفتم ربكم بالعرض فإن قالوا لا عرض بل كما يليق به تعالى قلنا والإستواء والنزول كما يليق به تعالى قال فجميع ما يلزموننا به في الإستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك والتعجب من التشبيه نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم فكما لا يجعلونها أعراضا كذلك نحن لا نجعلها جوارح ولا ما يوصف به المخلوق وليس من الإنصاف أن يفهموا في الإستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجوا إلى التأويل والتحريف ولا يفهموا ذلك في الصفات السبع وحيث نزهوا ربهم في الصفات السبع مع إثباتها فكذلك يقال في غيرها فإن صفات الرب كلها جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة فإذا أثبتنا تلك بلا تأويل وأولنا هذه وحرفناها كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وفي هذا بلاغ وكفاية أنتهى "

أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص٢٠٣) ، أنظر أصول العقيدة للرضواني ٥٢١/١ وما بعده

شرح الحديث:

هذا الحديث العظيم يبين فضل الثلث الأخير من الليل وأهمية الدعاء والاستغفار فيه. لنشرح معانيه بتفصيل:

* نَزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا

* يَنْزِلُ: هذا الفعل يدل على نزول حقيقي يليق بجلال الله وعظمته، وكيفيته لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى. أهل السنة والجماعة يؤمنون بهذا النزول على ما ورد في الحديث دون تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

* رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هذا فيه إثبات ربوبية الله عز وجل، وأنه المتصف بكل بركة وعظمة وجلال.

* إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: وهي أقرب سماء إلى الأرض.

* حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ

* هذا تحديد للوقت الذي يقع فيه هذا الفضل العظيم. يقسم الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ثلاثة أجزاء، والثلث الأخير هو أفضلها وأكثرها بركة.

* يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟

* هذا إعلان من الله عز وجل عن فضله وكرمه وسعة رحمته.

يدعو عباده في هذا الوقت المبارك أن يسألوه حاجاتهم ووعدهم بالإجابة.

فالدعاء في هذا الوقت أقرب للإجابة، لأن النفوس تكون فيه أصفى وأكثر خشوعًا، والأصوات أخفض وأبعد عن الرياء.

* مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟

---

[٢] - اخرجه البخاري (٤٧٣٣) ، مسلم (٤١١٠)

* هذا تأكيد على كرم الله وجوده، فهو سبحانه وتعالى يبسط يده بالعطاء في هذا الوقت، ويمن على السائلين من فضله ورحمته. سواء كانت المسألة دينية أو دنيوية، فإن الله قادر على إجابتها وتحقيقها.

* مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟

* هذا بيان لعظيم مغفرة الله ورحمته بعباده.

يدعو الله المستغفرين في هذا الوقت ليغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم. فالاستغفار في الثلث الأخير من الليل له فضل عظيم وهو من صفات المتقين الذين مدحهم الله في كتابه.

المعنى العام للحديث:

هذا الحديث يدل على عظيم فضل الله ورحمته بعباده، حيث يتفضل عليهم في هذا الوقت الشريف وينزل بذاته المقدسة إلى السماء الدنيا ليسمع دعاءهم ويجيب سؤلهم ويغفر ذنوبهم. إنه حث عظيم للمسلمين على اغتنام هذا الوقت بالدعاء والتضرع والاستغفار والقيام ولو بركعات قليلة من التهجد.

فوائد الحديث:

* فضل الثلث الأخير من الليل: هو وقت مبارك ومستجاب فيه الدعاء.

* أهمية الدعاء: الدعاء سلاح المؤمن وهو من أعظم العبادات.

* فضل الاستغفار: الاستغفار سبب لمغفرة الذنوب وجلب الرزق وتفريج الهموم.

* سعة رحمة الله وكرمه: الله تعالى قريب من عباده ويجيب دعواتهم.

* الحث على قيام الليل: ولو بجزء يسير منه في هذا الوقت الفاضل.

سادسًا: أن ننفي ما نفى الله عن نفسه نفيًا مجملًا غير مفصل.

قال الله تعالى ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]

قال الله تعالى ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]

عندما ينفي الله عن نفسه صفة معينة بشكل مجمل، فإننا ننفيها عنه كذلك بشكل مجمل، دون الخوض في تفاصيل هذا النفي إلا بدليل. مثال ذلك قوله تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩]

فنحن ننفي الظلم عن الله تعالى بشكل مطلق، دون تفصيل أنواع الظلم إلا إذا ورد بذلك نص.[1]

[1] - مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٦/٥ ، ومنهاج السنة النبوية ٥٢٦/٢ ، الرسالة التدمرية لابن تيمية ٤/٣ ، أصول العقيدة للرضواني ٣٨٤/١

الفصل الثاني هل ثبتت لله المعرفة؟

بالعودة إلى القاعدة الأولى من قواعد أهل السنة في إثبات الأسماء والصفات والأفعال، وهي إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، نتناول هنا الأدلة التي تدل على ثبوت وصف "المعرفة" لله تعالى.

أولًا: ثبوت فعل "عرف" لله تعالى في السنة النبوية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال :

" إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها،

قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟

قالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ،

قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ،

ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ،

ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها،

قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟

قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ،

قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ،

فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ،

ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها،

قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟

قالَ: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلَّا أنْفَقْتُ فيها لَكَ،

قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هو جَوادٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ.[١]

المعنى المستفاد من الحديث:

هذا الحديث فيه تحذير شديد من الرياء وعدم إخلاص النية في الأعمال الصالحة. فالله سبحانه وتعالى يعرف عبده بنعمه التي أنعم بها عليه في الدنيا، ويذكره بها ليقيم عليه الحجة. فالأعمال الظاهرة قد تبدو صالحة وقربة إلى الله، ولكن إذا كانت النية فاسدة وقصد بها العبد مدح الناس وثنائهم، فإنها تكون سببًا للعذاب يوم القيامة.

فالواجب على المسلم أن يتفقد نيته في كل عمل يعمله، وأن يحرص على أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى وحده، لا يبتغي به إلا رضاه وجنته.

[١] - أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي في "المجتبى" ٦/ ٢٣ - ٢٤، وفي "الكبرى" (٨٠٨٣)، والبيهقي ٩/ ١٦٨ من طرق، عن ابن جريج، به. وأخرجه بأطول مما هنا عبد الله بن المبارك في "الزهد" (٤٦٩)، ومن طريقه البخاري في "خلق أفعال العباد" (٣٣٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في الرقاق من "الكبرى" كما في "التحفة" ١٠/ ١١١، والطبري في "تفسيره" ١٢/ ١٣، وابن خزيمة (٢٤٨٢)، وابن حبان (٤٠٨)، والحاكم ١/ ٤١٨ - ٤١٩، وأبو نعيم في "الحلية" ٥/ ١٦٩، والبغوي (٤١٤٣)

.

ثانيا : ثبوت فعل "يعرف" لله تعالى في السنة النبوية

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " كنتُ رديفَ رسولِ اللهِ

فقال لي : يا غلامُ – أو يا بنيَّ – ألا أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعُك اللهُ بهنَّ؟.

فقلتُ : بلى ،

فقال : احفظِ اللهَ يحفظْك ، احفظِ اللهَ تجدْه أمامَك ، تعرَّفْ إلى اللهِ في الرخاءِ يعرفُك في الشدَّةِ ، إذا سألتَ فاسْألِ اللهَ ، وإذا استعنتَ فاسْتعنْ باللهِ ، فقد جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ ، فلو أنَّ الخلقَ كلَّهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيءٍ لم يقسمْه اللهُ لك؛ لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أنه يضرُّوك بشيءٍ لم يقضِه اللهُ عليك؛ لم يقدروا عليه ، واعمل للهِ بالشكرِ واليقينِ ، واعلم أنَّ في الصبرِ على ما تكرَه خيرًا كثيرًا ، وأنَّ النصرَ مع الصبرِ ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ ، وأنَّ مع العسرِ يُسرًا" [١]

شرح الحديث:

هذا الحديث النبوي الشريف هو كنز من كنوز السنة النبوية، يشتمل على وصايا عظيمة وقواعد أساسية في علاقة العبد بربه. لنفصل معانيه جزءًا جزءًا:

١. يا غلام، إني أعلمك كلمات

* يا غلام: النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب ابن عباس رضي الله عنهما وهو صغير السن آنذاك، وهذا يدل على اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بتربية النشء وتعليمهم أمور دينهم منذ الصغر.

* إني أعلمك كلمات: هذه الكلمات ليست مجرد ألفاظ تقال، بل هي مبادئ عظيمة وأسس راسخة للسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة.

[١] - أخرجه أحمد (٢٨٠٣) ، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١٠٧٤)، وفي "الأسماء والصفات" ص ٧٥ – ٧٦، وأخرجه الترمذي (٢٥١٦) وانظر (٢٦٦٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٧)

٢. احفظ الله يحفظك

* احفظ الله: حفظ الله هنا له معانٍ واسعة تشمل:

* حفظ حدوده وأوامره: بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده التي شرعها.

* حفظ حقوقه: بإفراده بالعبادة وعدم الشرك به، وشكره على نعمه.

* حفظ دينه وشريعته: بالتعلم والعمل به والدعوة إليه.

* حفظ الجوارح عن محارم الله: بكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل عن كل ما يغضبه.

* يحفظك: هذا هو الجزاء العظيم لمن حفظ الله، فالله سبحانه وتعالى يحفظه في:

* دينه: يثبته عليه ويحميه من الشبهات والفتن.

* دنياه: يحفظه في بدنه وماله وولده وأهله.

* آخرته: ينجيه من عذاب القبر وعذاب النار ويدخله الجنة.

٣. احفظ الله تجده تجاهك

* احفظ الله: تأكيد على أهمية حفظ الله كما سبق شرحه.

* تجده تجاهك: أي تجد الله معك وناصرًا لك ومؤيدًا في كل أمورك. يكون الله معك بتوفيقه وعونه وتسديده، ييسر لك الخير ويدفع عنك الشر. وقيل أيضًا: تجده أمامك في الشدائد، يلهمك الصواب ويقويك.

٤. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله

* إذا سألت فاسأل الله: توجيه خالص لتوحيد الله في الدعاء واللجوء إليه وحده في طلب الحاجات. فالله هو القادر على كل شيء، وبيده ملكوت السماوات والأرض.

* وإذا استعنت فاستعن بالله: الاستعانة هي طلب العون والمساعدة. يجب أن تكون الاستعانة الحقيقية بالله وحده، مع الأخذ بالأسباب المشروعة. فالله هو المعين الحقيقي، ولا حول ولا قوة إلا به.

٥. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف

* هذا الجزء يرسخ الإيمان بالقضاء والقدر، وأن كل ما يقع في الكون هو بعلم الله وإرادته وتقديره.

* لو اجتمعت الأمة: أي جميع الخلق من الإنس والجن.

* على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك: فمهما بذل الناس من جهد لنفعك، فلن ينالك إلا ما قدره الله لك من الخير.

* ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك: وبالمثل، لو اجتمعوا على إلحاق الضرر بك، فلن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك من البلاء.

* رفعت الأقلام وجفت الصحف: هذه عبارة تدل على تمام تقدير الله للأمور وكتابتها في اللوح المحفوظ، وأن الأمر قد فرغ منه ولا تبديل لقضاء الله.

٦. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة

* هذه الرواية تلخص جوهر الحديث.

* تعرف إلى الله في الرخاء: أي تقرب إلى الله في أوقات اليسر والعافية والنعمة، وذلك بالإكثار من الطاعات والقربات، وذكره وشكره، والتذلل له.

* يعرفك في الشدة: فإذا نزلت بك شدة أو كرب أو بلاء، فإن الله تعالى يعرفك لأنه قد عرفته في رخائك، فيعينك ويفرج عنك وييسر لك مخرجًا. هذا لأن الله

تعالى يجازي العبد على قدر عمله، فمن كان مقبلاً على الله في حال رخائه، كان الله معه في شدته.

المعنى العام للحديث:

هذا الحديث يدعونا إلى تقوية صلتنا بالله في كل أحوالنا، خاصة في أوقات الرخاء والعافية، وذلك بالإقبال عليه بالطاعة والعبادة والذكر والشكر. فمن فعل ذلك، فإن الله تعالى يكافئه بأن يحفظه ويرعاه ويكون معه في أوقات الشدة والبلاء، وييسر له أسباب الفرج والعون. كما يرسخ الحديث في قلوبنا الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الخير والشر كله بتقدير الله، فلا نلتفت إلى المخلوقين تعلقًا ورجاءً وخوفًا، بل نتوجه بقلوبنا إلى الله وحده.

أولا : ثبوت المعرفة

في الحديث الأول، نجد فعل "عَرَّفَهُ" الذي أسنده النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى، أي أن الله عرّف هذا العبد بنعمه.

وفي الحديث الثاني، نجد فعل "يَعْرِفْكَ" الذي وعد به النبي صلى الله عليه وسلم من يتعرف إلى الله في الرخاء.

ثانيًا: دلالة الفعل على الصفة.

إن ثبوت الفعل لله تعالى يدل على ثبوت الصفة التي اشتُق منها هذا الفعل. فكما أن فعل "سَمِعَ" يدل على صفة "السمع"، وفعل "بَصُرَ" يدل على صفة "البصر"، فإن فعل "عَرَّفَ" و "يَعْرِفُ" يدلان على معنى "المعرفة" كصفة ثابتة لله تعالى.

معنى المعرفة

له العلم بكل شيء، وهو بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم السر وأخفى،

ويعلم ما تكنه الصدور، ويعلم عدد كل شيء وأجله ومكانه، ويعلم ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

فالعلم شامل لكل شيء، والمعرفة جزء من هذا العلم الواسع.

الفصل الثالث: الرد على من ينكر المعرفة لله

حجة من ينكر وصف الله بالمعرفة، وهي أن المعرفة تأتي عن جهل، والله منزه عن ذلك. وسأقوم هنا بتفصيل

الرد على ما يقول بأن المعرفة تأتى عن جهل:

الجواب الأول: القياس الفاسد على صفات أخرى ثابتة.

إن القول بأن المعرفة تستلزم جهلًا سابقًا وبالتالي لا تجوز في حق الله، يستلزم بالضرورة إنكار صفات أخرى ثابتة لله تعالى بنصوص صريحة، مثل السمع والبصر والرؤية.

قال الله تعالى ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

فحواس السمع والبصر والرؤية في المخلوقين تكون عن طريق الجوارح والأدوات، والله تعالى ليس كمثله شيء. فإذا كان مجرد إطلاق لفظ "المعرفة" يوهم النقص، فإن إطلاق ألفاظ "السمع" و "البصر" قد يوهم التجسيم عند البعض، ومع ذلك فإننا نثبتها لله بالمعنى اللائق به.

هذا المنهج في إنكار بعض الصفات الثابتة بناءً على قياس فاسد هو منهج الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم من الفرق التي خالفت منهج أهل السنة في باب الأسماء والصفات.

الجواب الثاني: الفرق بين معرفة الخالق ومعرفة المخلوق.

إن قولهم بأن المعرفة تأتي عن جهل هو أمر صحيح في حق المخلوق. فالمخلوق يولد جاهلًا ثم يكتسب المعرفة بالعلم والتجربة. قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]

كما ذكر القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية " أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها- لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

الثاني- لا تعلمون شيئا مما قضي عليكم من السعادة والشقاء.

الثالث- لا تعلمون شيئا من منافعكم، وتم الكلام، ثم ابتدأ فقال: (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أي التي تعلمون بها وتدركون، لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم، أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته.[١]

هذه المعرفة في حق المخلوق تاتى بعد جهل ، أما في حق الخالق سبحانه وتعالى، فإن علمه ومعرفته أزلي أبدي شامل محيط بكل شيء.

فالله تعالى لم يسبق جهله معرفته، بل هو العليم بكل شيء قبل كونه. ومعرفته ليست اكتسابًا بعد جهل، بل هي صفة كمال أزلية ثابتة له سبحانه.

إذًا، فالمعنى الذي نقصده عندما نثبت لله تعالى صفة المعرفة ليس هو نفس المعنى الملازم للنقص في حق المخلوق.

فنحن نثبتها لله بالمعنى اللائق بجلاله وكماله، وهو العلم التفصيلي بكل شيء.

---

[١] - تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٥١) الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة.

الفصل الرابع: منهج الصحابة والتابعين في إثبات الصفات لله

كان منهج الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في فهم أسماء الله وصفاته وأفعاله منهجًا قويمًا واضحًا. كانوا يتلقون النصوص كما جاءت، ويثبتونها لله تعالى دون تردد أو تأويل أو تشبيه. لم ينقل عن أحد منهم أنه نفى صفة أو اسمًا أو فعلًا لله تعالى بحجة أنها تشبه صفات المخلوقين.

الدليل من فعل الصحابة:

حديث عائشة رضي الله عنها: " أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك. فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أخبروه أن الله يحبه. "[١]

في هذا الحديث، أقر النبي صلى الله عليه وسلم قول الصحابي بأن سورة الإخلاص "صفة الرحمن"، وهذا يدل على أن الصحابة كانوا يفهمون أن لله صفات ثابتة، وأنهم يطلقونها عليه بناءً على ما ورد في النصوص. ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإطلاق أو يستنكره بحجة التشبيه.

شرح الحديث في فضل سورة الإخلاص ومحبة الله للعبد

هذا الحديث الشريف الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو من الأحاديث العظيمة التي تبين فضل سورة الإخلاص ومحبة الله عز وجل لمن أحب هذه السورة وتدبر معانيها.

شرح الحديث:

[١] - أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣)، وابن حبان (٧٩٣) ، والنسائي (١٠٤٧١).

* "أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية": السرية هي قطعة من الجيش تُبعث في مهمة قتالية أو استطلاعية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُؤمّر على السرايا من يراه أهلاً لذلك. هذا الرجل كان أميراً على أصحابه في هذه السرية، وكان يؤمهم في الصلاة.

* "وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد": هذا هو محل استفهام الصحابة. كانوا يصلون خلف هذا الأمير، ولاحظوا أنه في كل ركعة يقرأ فيها سورة بعد الفاتحة، كان يختم قراءته بسورة "قل هو الله أحد". أي أنه كان يقرأ سورة أخرى، ثم يتبعها بسورة الإخلاص في نفس الركعة قبل الركوع. هذا الفعل لم يكن معتاداً لدى بقية الصحابة، فاستغربوا منه.

* "فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم": بعد انتهاء مهمة السرية وعودتهم إلى المدينة، أخبر الصحابةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بفعل أميرهم هذا في الصلاة.

* "فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك": لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم فعله مباشرة، بل أمر بسؤاله عن سبب التزامه بقراءة سورة الإخلاص في كل ركعة. هذا يدل على أهمية السؤال عن الأفعال التي تبدو مخالفة للعادة قبل الحكم عليها، وعلى حرص النبي صلى الله عليه وسلم على معرفة الدوافع.

* "فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها": هذا هو جواب الرجل الصادق الذي يكشف عن عظيم إيمانه ومحبته لله. قوله "لأنها صفة الرحمن" يشير إلى أن سورة الإخلاص تشتمل على صفات الله الأساسية والمتعلقة بتوحيده وتنزيهه عن الشبيه والمثيل والولد. فهي تجمع أصول التوحيد الخالص:

* {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}: إثبات الوحدانية المطلقة لله.

* {اللَّهُ الصَّمَدُ}: إثبات صمديته، أي أنه السيد الكامل الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهو منزه عن الجوف والاحتياج.

* {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}: تنزيهه عن الوالد والولد، وهذا نفي لأقوال المشركين وأهل الكتاب.

* {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: تنزيهه عن النظير والمساوي.

فالرجل أحب هذه السورة لما فيها من بيان واضح وشامل لصفات الله عز وجل المتعلقة بالأحدية والصمدية ونفي الولد والوالد والكفء. ومحبته لهذه الصفات العظيمة جعلته يحب السورة التي تضمنت ذلك، فأحب أن يكثر من قراءتها والتذكير بها في صلاته.

* "فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أخبروه أن الله يحبه": هذا هو الشاهد العظيم في الحديث. فكان جزاؤه من جنس عمله. لما أحب الرجل سورة تصف الله عز وجل وبيّن توحيده، أحبه الله سبحانه وتعالى. هذا يدل على أن محبة صفات الله ومحبة ما جاء به الوحي من أسمائه وصفاته وأحكامه هي من أعظم أسباب محبة الله للعبد. هذا التقرير النبوي لفعل الرجل ومحبته لسورة الإخلاص ومقابلته بمحبة الله له هو دليل على فضل هذه السورة، وفضل من أحبها لمعانيها العظيمة، وجواز قراءة سورتين في ركعة واحدة.

الفوائد المستفادة من الحديث:

* فضل سورة الإخلاص: يدل الحديث على عظيم فضل سورة الإخلاص وأنها تشتمل على صفات الله الأساسية المتعلقة بالتوحيد.

* أهمية تدبر معاني القرآن: محبة الرجل للسورة جاءت من فهمه لمعانيها وما تضمنته من صفات الله، وهذا يؤكد أهمية تدبر آيات القرآن الكريم.

* محبة الله للعبد بسبب محبته لكلامه وصفاته: الحديث يبين أن محبة العبد لما يحبه الله من القرآن الكريم، وخاصة ما يتعلق بصفاته وتوحيده، سببٌ لمحبه الله لهذا العبد.

* جواز الجمع بين سورتين في ركعة بعد الفاتحة: فعل الرجل وإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له يدل على جواز قراءة سورة أخرى بعد الفاتحة ثم قراءة سورة الإخلاص في نفس الركعة.

* السؤال قبل الإنكار: فيه أدب السؤال والاستفسار قبل الحكم على فعل المسلم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بسؤاله عن سبب فعل الرجل.

* بيان أن أساس الإيمان هو معرفة الله ومحبته: محبة الرجل لسورة الإخلاص لأنها "صفة الرحمن" تدل على أن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته هو أساس الأعمال الصالحة.

هذا الحديث يحث المسلم على تدبر سورة الإخلاص وفهم معانيها، والإكثار من قراءتها في الصلاة وخارجها، لما لها من الفضل العظيم، ولأنها سببٌ لمحبة الله تعالى إذا كانت نابعة من القلب المحب لله وصفاته.

الحديث

جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عز وجل: قوله:﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩] ، وقوله: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَـٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] [1]

شرح حديث "لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات"

هذا الحديث يتناول ثلاث مواقف مر بها نبي الله إبراهيم عليه السلام، ووصفت أفعاله فيها بـ "الكذب" في ظاهر اللفظ، إلا أن العلماء شرحوا هذه المواقف وبينوا حقيقتها ومعناها الشرعي، وأنها ليست من الكذب المذموم الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء.

[1] - أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧٢)، وأبو داود (٢٢١٢) ، والنسائي (١٠٤٧١) ، وابن حبان (٥٧٣٧) ، واحمد (٨٩٨٨) ، والطبراني (٩٥٦).

معنى "كذبات" في هذا السياق:

لا يُفهم من كلمة "كذبات" هنا أنها كذب بالمعنى الحقيقي المحرم الذي ينافي صدق الأنبياء. بل المقصود بها هنا هو استخدام "المعاريض"، وهي الكلام الذي يحتمل أكثر من معنى، ويكون المتكلم يقصد معنى صحيحاً في نفسه، في حين يفهم السامع معنى آخر مغايراً للواقع.

وهذا النوع من الكلام يُلجأ إليه لمصلحة شرعية أو دفع مفسدة، وليس هو الكذب الصريح.

شرح المواقف الثلاث:

اثنتان من هذه "الكذبات" كانتا "في ذات الله عز وجل"، أي كان القصد منهما نصرة دين الله وتوحيده، وفي مواجهة الشرك وأهله:

* قوله: :﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩]

ذكر المفسرون أن هذا كان في يوم عيد لقوم إبراهيم يخرجون فيه للاحتفال، ودعوه للخروج معهم. فنظر إبراهيم نظرة في النجوم وقال: "إني سقيم".

لم يكن إبراهيم عليه السلام مريضاً بمرض بدني يمنعه من الخروج بالضرورة، ولكن اختلف العلماء في تأويل قوله هذا:

* قيل: إنه سقيم القلب بما يرى من كفر قومه وعبادتهم للأصنام. فسقم القلب بهذا أشد من سقم البدن.

* قيل: إنه قصد أنه سيسقم في المستقبل ويموت، وهذا حق لكل إنسان.

* قيل: إنه قال ذلك ليخلو بآلهتهم ويكسرها، فكان تعريضاً وتورية ليتركوه وشأنهم ليتمكن من تحقيق مقصده في إبطال الشرك.

فالمقصود أنه لم يرد الخروج معهم ليشاركهم عيدهم الشركي، واستخدم هذه العبارة التي توهم السامع أنه مريض بدنياً ليتخلف عنهم، وذلك لغرض أسمى وهو التخطيط للقضاء على أصنامهم.

* وقوله: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]

هذا الموقف كان بعد أن حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام كلها إلا كبيراً لها، ووضع الفأس في عنقه. ولما رجع القوم ورأوا ما حدث لآلهتهم، سألوا: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] ، فقال بعضهم: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

فلما جاءوا بإبراهيم وسألوه ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] ، أجابهم: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]

لم يكن الصنم الكبير هو الذي حطم الأصنام الأخرى، وإبراهيم عليه السلام يعلم ذلك يقيناً.

لكن قوله هذا كان من باب التهكم بهم وإقامة الحجة عليهم وإلزامهم، كأنه يقول لهم: إن كنتم تعتقدون أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تستحق العبادة، فاسألوا كبيرهم الذي بقي، فإن نطق وأخبركم أنه الفاعل فصدقوه! وهذا محض المحال، لأن الأصنام لا تنطق ولا تعقل. فالمقصود بهذا القول هو تبكيتهم وإظهار عجز آلهتهم وبطلان عبادتها، ودعوتهم للنظر والتفكر في حقيقة هذه الأصنام التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً. فهو استخدام للمعارضة لإظهار الحق وإبطال الباطل.

والثالثة كانت "في شأن سارة":

الشاهد هنا في الحديث " ثنتين منهن في ذات الله عز وجل "

فلو كان في إطلاق وصف "الذات" على الله محذور شرعي، لبينه النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة ولنهى عنه.

والحديث لا يعني أن إبراهيم عليه السلام كذب كذباً حقيقياً يتنافى مع نبوته وعصمته، بل استخدم المعاريض والتورية في هذه المواقف الثلاث لمقاصد شرعية عظيمة: ففي الموقفين الأولين كان القصد إعلاء كلمة الله وإبطال الشرك

وإقامة الحجة على المشركين، ولذلك وصفتا بأنهما "في ذات الله عز وجل". وفي الموقف الثالث كان القصد دفع ظلم ملك جبار والحفاظ على عرضه وزوجته، مع استخدام تعريض يحتمل معنى صحيحاً وهو الأخوة في الإسلام. وهذا يدل على حكمة إبراهيم عليه السلام وفطنته في الدعوة إلى الله وفي التعامل مع المواقف الصعبة، بما لا يخل بمقام النبوة والصدق الواجب للأنبياء.

اما الحديث المشار اليه " ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها " [1]

فلو كان في إطلاق وصف "المعرفة" على الله محذور شرعي، لبينه النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة ولنهى عنه.

ولكن لما ورد في النصوص ما يدل على هذا المعنى، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم إطلاق الصفات الثابتة، فإن هذا يدل على جواز ذلك على الوجه اللائق بالله تعالى.

---

[1] - سبق تخرجه

خاتمة البحث

في ختام هذا البحث، يتضح لنا جليًا أن منهج أهل السنة والجماعة يقوم على إثبات كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات والأفعال، وذلك على الوجه اللائق بجلاله وكماله، مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقات وعن كل نقص وعيب.

وقد تبين من خلال الأدلة من السنة النبوية ثبوت فعل "عَرَّفَ" و "يَعْرِفُ" لله تعالى، مما يدل على ثبوت صفة "المعرفة" له سبحانه بالمعنى اللائق به، وهو العلم التفصيلي بكل شيء.

أما من ينكر وصف الله بالمعرفة بحجة أنها تستلزم جهلًا سابقًا، فإن حجته مردودة بالقياس الفاسد على صفات أخرى ثابتة، وبالفرق الجوهري بين صفات الخالق وصفات المخلوق. فمعرفة الله ليست اكتسابًا بعد جهل، بل هي صفة كمال أزلية ثابتة له سبحانه.

وإن منهج الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان كان هو التسليم للنصوص وإثبات الصفات لله كما وردت، دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

لذلك، فإن القول الفصل في هذه المسألة هو إثبات صفة المعرفة لله تعالى بالمعنى اللائق بجلاله وكماله، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية وفهم سلف الأمة. وعلى من ينفي هذه الصفة أن ينظر في منهجه في التعامل مع سائر الصفات الثابتة، فإما أن يثبت الجميع على منهج أهل السنة، وإما أن ينفي الجميع، وهو قول لم يقل به أحد من أهل الحق.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

إعداد الباحث/ محمد حمدى سيد صالح

= أبو عُمير محمد الحلوانى =